معاشر المسلمين، لم تعرف البشريةُ ديناً ولا حضارةً عُنيت بالمرأة أجملَ عناية وأتمَّ رعايةٍ وأكملَ اهتمام كالإسلام. تحدَّث عن المرأة، وأكّد على مكانتها وعِظم منزلتها، جعلها مرفوعةَ الرأس، عاليةَ المكانة، مرموقةَ القدْر، لها في الإسلام اعتبارٌ سامٍ ومقامٌ عالي، تتمتّع بشخصيةٍ محترمة وحقوقٍ مقرّرة وواجبات معتبرة. نظر إليها على أنها شقيقةُ الرجل، خُلِقا من أصل واحد، ليسعدَ كلٌّ بالآخر ويأنس به في هذه الحياة، في محيط خيرٍ وصلاح وسعادة، قال ﷺ: ((إنما النساء شقائق الرجال)).

جعل الإسلام المرأةُ كالرجل في المطالبة بالتكاليف الشرعية، وفيما يترتّب عليها من جزاءاتٍ وعقوبات: (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً)، هي كالرجل في حمل الأمانة في مجالات الشؤون كلها، إلا ما اقتضت الضرورةُ البشرية و طبيعتها الخَلْقية التفريقَ فيه، وهذا هو مقتضى مبدأ التكريم في الإسلام لبني الإنسان: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُمْ مّنَ ٱلطَّيّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً).

إخوةَ الإسلام، أشاد الإسلام بفضل المرأة ورفع شأنَها، وعدَّها نعمةً عظيمةً وهِبةً كريمة، يجب مراعاتها وإكرامُها وإعزازها والمحافظة عليها، يقول المولى جل وعلا: (لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء، يَهَبُ لِمَن يَشَاء إِنَـٰثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءَ ٱلذُّكُورَ)، لاحظوا كيف وصفها، وصفها وعدَّها هبة إلهية، وفي مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺقال: ((من كان له أنثى

فلم يئـدها ولم يُهنها ولم يـؤثر ولـده عليها أدخله الله الجنة).

نعم إخوة الإيمـان، نتكلم اليـوم عن المـرأة، وإن كـان هذا الموضوع متشعب الأفكار والعناصر، وإن كان كـثر الكلام فيه في الآونة الأخـــيرة، إلا أننا يجب أن نـــذكر الناس بين الفينة والأخرى، لأن الذكرى تنفع المؤمنين، وخاصـةً ممن نسـوا، أو أنسـاهم الشـيطان لعنه اللـه، أنسـاهم تعـاليم دينهم، ووصـايا نـبيهم الكـريم ﷺ في نساءهم.

إننا عندما نطلق لفظ المرأة، كثيرٌ منا ينطلق ذهنه إلى أبعدَ ما يكون من التفسير والاعتبار، الذي يكـون بعضه صـحيحاً صـائباً، والبعض الآخر مغلوطـاً خاطئـاً، هـذه المـــــرأة، من هي ؟؟؟؟ إنها أمك أو أختك أو بنتك أو زوجتك، إذن، نحن محاطون بمربـعٍ قوامه الأم والأخت والبنت والزوجة، مربعٌ كله حنانٌ وعطـفٌ ورقـةٌ وأدب، كل هذا يستوجب منا كمسـلمين أن نـوفي هـذا المربع الرقيق حقه من العناية والرعاية والتعاهد بالإحســـــان والتكريم.

إخـوة الإسـلام: وبضـدها تتمـيز الأشـياء، لا بد لنا عند التطرق لهذا الموضوع الحساس الذي اتخذه كثـيرٌ من المبغضين والمتآمرين، اتخذوه مطيةً للإسـاءة للإسـلام وأهله، مستشهدين بشـواهد سـيئةً لا تمت لهـذا الـدين الـــرحيم الرقيق بصـــلة، لا بد لنا عند التكلم في هـــذا الموضوع من الوقوف على نافذة التـاريخ، لننظر كيف كانت المرأة تعيش، وأيَ منزلة ارتقت، وما كان دورُها في الحياة، قبل أن تشرق عليها شـمس رسـالة محمد ﷺالتي نزل بها الروح الأمين من عند رب العالمين .

وإننا إذ نتحـدث اليـوم عن حـال المـرأة قبل الإسـلام، يكفينا أن نتحـدث عن حالها عند العـرب وحـدهم دون سواهم من الأمم والملل التي كـانت وما يـزال بعضـها قائماً إلى يومنا هذا.

كـانت المـرأة في الجاهليـة، تُعَد من سـقْط المتـاع لا يقام لها وزن، حتى بلغ من شدة بغضـهم لها آنـذاك أنَّ أحـــدهم كـــان حينما تولد له البنت، يســـتاء منها أشد استياء، بل كان يكرهها ولا يستطيع مقابلة الرجـال من الخجل الـذي يشـعر بـه، ثم يبقى بين أمـرين، إما أن يـــترك هـــذه البنت مهانـــة، ويصـــبر هو على كراهيتها وتنقيص الناس له بسـببها، أو أن يقتلها شر قِتلـة، بـأن يـدفنها وهي حيـة، ويتركها تحت الـتراب حـتى تمـوت، وقد ذكر الله عز وجل ذلك عنهم فقـــــال: (وإذا بُشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسـوداً وهو كظيم ، يتـوارى من القوم من سوء ما بُشِّـر به أيُمسـكه على هُـوْن أم يدسّه في التراب ألا ساء ما يحكمون)، وأخبر سبحانه أنه سيُنْصف هـــذه المظلومة ممن ظلمها وقتلها بغـــير حـق، فقـال تعـالى: (وإذا المـوءدة سـئلت، بـأي ذنب قتلت).

وكـــانوا في الجاهلية إذا لم يقتلـــوا البنت في صـــغرها أهانوها في كبرهـــا، فكـــانوا لا يورثونها من قريبها إذا مات، بل كـانوا يعـدونها من جملة المتـاع الـذي يُـوْرَث عن الميت، بل كـــان الرجل إذا مـــات وله أولاد من غيرها، كان لأكبر أولاده الحق في زوجة أبيه، فإن شاء تزوجها، وإن شاء باعها أو استخدمها عبدةً عنـده، روى الإمام البخـاري وغـيره عن ابن عبـاس قـال: كـانوا إذا

مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت: (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها).

كان الرجل في الجاهلية يتزوج العدد الكثير من النساء دون حصرٍ بعدد، وكان يسيء عشرتهن، فلما جاء الإسلام حرَّم الجمع بين أكثرَ من أربع نساء، واشترط لجواز ذلك تحقق العدل بينهن في الحقوق الزوجية قال تعالى: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم).

نعم أيها الإخوة والأحبة، لقد جاء الإسلام والمرأة على هذا الحال السيء، فأنقذها مما كانت فيه من مهانةٍ وذل، وكرَّمها وضمن لها حقوقها، وجعلها متساويةً مع الرجل في كثير من الواجبات الدينية، وفي ترك المحرمات، وفي الثواب والعقاب، وعلى ذلك قال تعالى: (من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياةً طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون)، وقال تعالى: (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما)، لاحظوا كيف جمع الله تعالى الذكور

والإناث في الفضائل وحميد الصفات، كذلك جمع بينهم في بيان الثواب وحسن الجزاء.

جاء الإسلام فدعيت المرأة إلى الإيمان به كما دعي الرجل، وجاهدت المرأة في الإسلام كما جاهد الرجل، فكرَّمها الإسلام ونبي الإسلام أيَّما تكريم، حتى إن الله تعالى ذكر في كتابه الكريم نساءً مؤمنات ، تعدل الواحدة منهن ملايين الرجال، فضرب لهن مثلاً بامرأة فرعون: (إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ).

كذلك فقد ذكر الله سبحانه السيدة مريمَ أم عيسى عليه السلام ، وذكر أنها صِدِّيقة، ولم يذكر الله بعد الأنبياء اسم صديقٍ واحد في القرآن فلم يُذكر مقام الصِّدِّيقِيَّة في القرآن إلا للسيدة مريم، فقال: (مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ ٱلطَّعَامَ).

بل إن القرآن الكريم لما ذكر قصص الرجال في القرآن وخاصةً قصص الملوك، كان أكثرُ الملوك المذكورين من الرجال في القرآن ممن ضل وكفر وخاب سعيه، ولكنه ذكر ملكةً واحدة كانت أفضل من ألوف الملوك والرجال الذين كفروا بالله، تلكم هي بلقيسُ ملكة سبأ، التي آمنت بالله، وجنَّبت بحكمتها وعقلها، جنبت قومها الهلاك والكفر.

كما أن الإسلام يذكر للنساء في صدر الإسلام مواقف رائعة ومواقف مدهشة، فكما صبر المسلمون على

العـذاب من الرجـال ، صـبرت المسـلمات من النسـاء ففاطمة بنت الخطـــاب تســـلم قبل أخيها عمـــر، ولما عــرف عمر بــذلك ضــربها فتقــول في وجهه حين رأت الدم يسيل منها: نعم، يا ابن الخطاب أســلمت، فافعل ما بدا لك. فيصعق عمر من إجابتها، ويقول لها: جيئيني بالكتاب الذي تقرؤون منه، فتأتيه به، فلما قرأه، قــال: "دلوني على محمد ﷺكي أسلم".

وإن أم شـــريك آمنت وعـــذبت وجـــوعت وعطشت وألقيت في الحـــرَّ، وهي في شـــبه إغمــاء من الجـــوع والعطش، ولما حـــاولوا ردها إلى الكفـــر، قـــالت : "اقتلــوني، ولن أعــود للكفر أبــداً"، فلما عــرف قومها الحقيقة عرفـــــوا أنها على الحق وأنهم على الباطل ، فكــوا وثاقها وحبالها وقــالوا لهــا:فلننطلق إلى رســول الله ﷺلنعلن إسلامنا.

ولا ننسى الصحابية الجليلة نسيبةَ الأنصارية التي كانت مع النــبي ﷺ تــدافع عنه في أحد حين انهــزم كثــير من الرجــال وابتعــدوا عنه حــتى قــال عنها ﷺ: ((ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل عني)).

هكذا كانت المرأة المسلمة وهكذا كان تكريم الإســلام لهــا. يمشي أمــير المؤمــنين عمر فتســتوقفه المــرأة فيقف لها، وتقول له: "يا عمر كنت تــدعى عمــيرًا ، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمــنين ، فــاتق الله يا عمر فإنه من أيقن بالموت خاف الفــوت، ومن أيقن بالحســاب خــاف العــذاب". وهو واقف يســمع لكلامها فقيل له: يا أمير المؤمنين .. رجال .. على هذه العجوز

فقال: (والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ما تحركت من مكاني، أتدرون من هذه العجوز ؟، هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات. أيسمع رب العالمين قولها ، ولا يسمعه عمر) الله أكبر هذا كله دليل على صدق هؤلاء النساء، وعلى عظم مكانة المرأة في الإسلام، فالله لم يعط الفضل للرجال فقط ، ولم يعط الشرف للرجال فقط ، ولم يعط العزة والكرامة للرجال فقط، إنما أعطاها لكل من آمن وصدق إيمانه وثبت على الحق ثبوتاً صادقًا.

لقد فضل الله الرجل على المراة في مقامات متعددة، فقال: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)، وقال أيضاً: (و للرجال عليهن درجة)، وإن هذا التفضيل يفهم أحياناً فهماً خاطئاً، فإن الله تعالى فضلنا معاشر الرجال على النساء في بعض المواطن وليس كلها، وما ذاك إلا لأسباب تقتضي التفضيل عليها، كما في الميراث والشهادة والدية والقوامة والطلاق، لأن عند الرجل من الاستعداد الخَلْقي ما ليس عند المراة وعليه من المسؤولية في الحياة ما ليس على المرأة.

وفي المقابل، فإن الله تعالى جعل للمرأة حقاً في الميراث فقال سبحانه: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا﴾ ، جعل لها التملك والتصدق والإعتاق كما للرجل قال تعالى: ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ ، جعل لها الحق في

اختيار الزوج فلا تُزَوَّج دون رضاها، صانها الله بالإسلام من التبذل، وكف عنها الأيدي الآثمــة، والأعين الخائنــة، التي تريد الاعتــداء على عفافهــا، والتمتع بها على غــير الوجه الشرعي.

هكــذا عاشت المــرأة في ظل الإســلام وكرامتــه، أُمَّاً وزوجة وقريبة وأختا في الـــرحم وأختـــاً في الإيمـــان والــدين، تــؤدي وظيفتها في الحيــاة ربة بيت وأســرة، وتزاول خارج الــبيت ما يليق بها من الأعمــال إذا دعت الحاجة إلى ذلــك، مع الاحتشـــام والاحتفــاظ بكرامتها والالـــتزام الكامل بالحجـــاب الضـــافي على جســـمها ووجهها، وتحت رقابة وليها.

ختامــاً: أوصى بها نــبي الاســلام عليه الصــلاة والســلام وصيةً خاصة حين قــال في حجة الــوداع: ((واتقــوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان))، أي أســيرات، كــذلك قال: (لا يكرمهن إلا كريم، ولا يضربهن إلا لئيم)